نظرة المستشرقين إلى التراث العربي

أ.د باقي محمد

سهل المستشرقون توظيف هذه الترجمات في خدمة الحضارة العربية ،وجعلها جاهزة لأبناء جلدته حتى يتعرفوا على هذا الكنز الدفين لدى العرب و بهذا شكلوا قاعدة معرفية مبنية على التحليل المنطقي الرصين وقد قدموا خدمات جليلة في نشر هذا التراث و إن كان البعض منه ظاهرهم أوضح من باطنهم في نشر هذه الأعمال كلها ثم أننا نلاحظ اهتماما مكثفا في دراسة الألمان لتراثنا و رصد الاختلافات الموجودة نظريا و التطبيقيا في محاولة منهم لضبط خصوصية و مميزاته ،فمثلا فلرجيل Flugel نشر " فهرست ابن يعيش و نشر لبيرت Tigert " تاريخ الحكماء للقفطبي

-ونشر ياهن Jahan " شرح المفصل لابن يعيش و قد أكد المستشرقون في نتناولهم للدراسات العربية أنهم يعتمدون على الدقة في أبحاثهم ، وهذا من خلال البحث عن المصادر الصحيحة "و نحن بطبيعة حل لا تأخذ كل شيء تروية المصادر على عواهنه دون أن يعمل النظر فيه بل تقيم وزنا فحسب كما ثبت أمامه ونحن في هذا نطبقه على تاريخ الفكر عندنا و على المصادر المدونة لعالمنا " [6] و هي محاولات للإظاهر لحقيقة العلمية على حسب زعمهم و لعل هذا ما يفسر هيمنة صيغة المعارضة كمنهجية دراسية في أغلب أبحاثهم في دراستهم للغة العربية ،وقد اختلفت و تنوعت ما آخذ هؤلاء المستشرقون لتراثنا ،وهذا بخصوص ممارستهم التطبيقية لتراثنا و لبلوغ ذلك وضعوا استراتجية محكمة كانت بمثابة الترجمة العلمية لشعرنا القديم، وقاموا بتحديد الخطوات الإجرائية المناسبة لهذا الشعر و إن كان البعض قد أنكره و لم يعترف بوجوده و لكن رغم هذا فقام البعض بترجمة و تهيئته و إبرازه للوجود ،فـ(ريسكه) يعد من المستشرقين الذين اهتموا بدراسة للمعلقات العربية ، فقام نشر (معلقة طرقة بن العبد) [8] . و نجد فولار Vuller نشر معلقة (الحارث بن حلزة) [9] و فابل سيمون Weil ترجم معلقة الشنفرة و قام بتهذيبها .

و نجد هؤلاء المستشرقون تهافتوا تهاتفا كثيرا حول دراسة شعرنا و أدبنا القديم ،وهذا ما أعطى فاعلية أكثر على شعرنا القديم و أصبح أكثر خصوبة في الفكر الغربي ،ف جكوب ريسكه اهتم اهتماما كبيرا بدراسة اللغة العربية و آدابها وكان شغوفا لمخطوطات العربية إلى حد كبير" ليس عندي أولاد و لكن أولادي يتامى بدون أب و أعنى بهم المخطوطات " [10] ونستطيع أن نؤكد أنه أول من قام نشر معلقة (طرقة بن العبد) و قام باستنباط بعض المفاهيم و تأصيلها في فكرنا العربي بكل ما تحمله هذه االمجهودات من

خصوصيات حضارية و فكرية متميزة و من بين المستشرقين الذين ساهموا في نفض الخيار عن تراثنا و خاصة الشعر منه نجد (جر يغسفلد) Grei frash والذي قام بتأليف تاريخ الأدب العربي " هذا الهدف الذي كان محط أنظاري وضع تاريخ ذاتي للشعر العربي ،وأن تبرز الصورة الكلية للشخصية ببنائها و حيويتها "[11] و رغم اهتمامهم قاموا بنشر المخطوطات و تهذيبها كما ذكرنا سابقا (وسغلف) Nusten feld حقق عددا لا بأس به من المخطوطات :كـ معجم البلدان للياقوتي وفيات الأعيان لابن خلكان طلبات الحافظ للذهبي ،تهذيب بين الأسماء و اللغات و غيرهم من المخطوطات المهمة العربية [12].

ورغم على هذا لا يستطيع إنكار دور المستشرقين في حرصهم على إظهار تراثنا و لولاهم لكان عرضه للتلف و للضياع " و ينجلى في معالجة أسلافنا الأقدمين لرواية كتب الحديث و للغة و الشعر و الأدب و التاريخ في دقة و آمانة و لكن المستشرقين تبنوا إحياء هذا [13].

و في هذا السياق علينا أن نشير أن المستشرقين تميزوا عن غيرهم بالأداء المتميز في طرح الأفكار العلمية و معالجتها بطريقة علمية بعيدة عن التعصب ، و إن كان بعض المستشرقين تعلموا اللغة العربية و تمكنوا من ناصية اللغة العربية، ولكن في حاجة في نفس يعقوب :يعني أنهم تعلموا لضرب الحضارة العربية في الصميم و التشكيك في حضاراتنا كما شككوا في الشعر الجاهلي ولا يمكننا أن نعمم هذا على كل المستشرقين، لأن هناك مبادرات جيدة و نماذج رائدة من المستشرقين الذين تعلموا اللغة العربية ، وقدموا خدمات جليلة في هذا المجال و اعتمادا لشفافية و المصداقية في تناولهم و دراستهم كحضارتنا و آدابنا : فمثلا اهتم المستشرقون الألمان النحو العربي فقامت دور النشر الألمانية بطبع الاجرومية [14]، كما قام (جيسرين بان) Gustune Jahan يترجمة كتاب سيبويه إلى اللغة الألمانية [15].

كما نشر (جوزريت ماكس) Grumet Max كتاب آدب الكاتب لابن قتيبة و طبع بطبعة لبدن المعروفة على المستوى العالمي [16].

و نشر بوخ Buche النصيح في نظم الفصيح لابن جابر الاندلسي و في مجال الشعر العربي قام (أبيل فون) Aluel ينشر المعلقات السبع و علق عليها باللغة الألمانية و من خلال كا سبق يتضح لنا أن المستشرقين حاولوا رصد التراث العربي بمختلف اتجاهاتهم معتمدين على المنهج التحليلي تارة و المنهج الشك و توسيع أطر و قواعد هذا التحليل الذي تجسد من خلال التحقيقات الذي قام بها المستشرقون و هي ظاهرة اتسموا بها في أبحاثهم و دراستهم " فالمستشرق يبدأ بحثه و أمامه غاية حددها، و نتيجة وصل إليها مقدما ، ثم يحاولوا أن يثبتها بعد ذلك "[17].

وتحققت أعمال المستشرقين بتنظيم محاضرات وندوات تصب في إطار إبراز الحضارة العربية ومكوناتها و تجسيدها على أرض الواقع ، ثم إصدار مجلات فصلية وسنوية تمثل جزءا كبيرا من هذا للنشاط "فنحن نعتبر المستشرقين عندما نقوم اليوم بدراسات في العلوم العربية الإسلامية لا نقوم بها قط لكي نبرهن على طبيعة للعالم العربي الإسلامي ومظاهره المختلفة، والذي عبر عنه الأدب العربي في كتابه "[18] ولا بد من الإشارة أن الشعر الجاهلي شكل لديهم قضية هامة، فحاولوا دراستها من خلال معطيات عدة و تفسيرات مختلفة حاولوا من خلالها البحث عن ميكانيزمات الشعر الجاهلي وغيره من الثقافة العربية :"إن التقليل من إجازات المسلمين العلمية والحضارية في ميدان النظم وما قدموا للحضارة الانسانية، و إذا كان هناك إضافات جديدة ، فهي لا تصل إلي حد الابتكار و الإبداع "[19].

ومن هذا المنطلق نجد أن المستشرقين رغم المأخذ التي أخذت عليهم مبنيا لإقامة شروع فكري الذي تبناه المستشرقون في خدمة اللغة العربية و الحرف العربي والتي صانت أصالية "لقد كان المسلمون متفردين بالعلم في تلك القرون المظلمة، فنشروه حيث وطئت" أقدامهم و كانوا هم السبب في إخراج أوروبا من الظلمات إلى النور "[20].

ومن طبيعة المستشرقين البحث عن التراث العربي بطرق تستمد من العقل و الحرية في التفكير والتفكير التأملي "و لم تكن حضارتهم صورة حركية من نتف وقطع حضارات مختلفة و إنما كانت نمطا جديدا متميزا ،صهر كل تلك الألوان والحضارات و الثقافات بروح جديدة "[21].

و كثيرا هي الأسئلة التي تثير ذاتها و تلم بالبحث عن أجوبتها و هي أسئلة حاول المستشرقون من خلالها الكشف عن النصوص العربية القديمة و إعطائها حقها من البحث والتحليل "أما المسلمون فهم الذين تطورا العلم التجريبي الذي كان الخطوة الأولى في تحديث الغرب "[22].

و هكذا تبرز أهمية الخطاب الاستشراقي المتمثل في التعبير عن المشروع الثقافي الغربي هذا المشروع يتمثل في دراسة الحضارة العربية بمختلف اتجاهاتها من خلال اعتمادها على مناهج عدة منها التشكيك و التحليل و هذا ما يؤسس هوية حضارية تعتمد على العقلانية وتمحيص والتحليل فهو مشروع يعتمد على الأصل في دراسة المخطوطات العربية وإظهارها للجود و تفكيك بنية الأشياء الموجودة في طياته فهي قراءة مهمة لحضارتنا و تاريخنا و يحاولون من خلال كل هذا إسقاط الوقائع التاريخية و تفسير ها طبيعتها في دراستهم لتراثنا "إسقاط الواقع المعاصر المعاش على الوقائع التاريخية الضاربة في عمق التاريخ، فيفسرونها في فود خبرتهم و مشاعرهم الخاصة ما يعرفونه من واقع حياتهم و مجتمعاتهم

"[23] و يأتي هذا المنهج في نظرهم في إطار البحث العقلاني على حد تعبيرهم و هذه في الحقيقة هي نظرة المستشرقين و خاصة الألمان لدراسة لتراتنا العربي ، و إن كان بعض المستشرقين حينما درسوا تراثنا قواعدية ذهبوا في بعض آرائهم أن العرب متخلفين في دراستهم لتراتهم و هم أصحاب عقل ما قبل المنطق و هذا لكون المستشرق "ينظر إلى سائر الظواهر الأخرى التي يضعها للدراسة ويضعها على نفس المستوى الثقافي و مناهجه،فيسهل عليه عملية الإسقاط التي يمارسها من خلال نظرته الإسلامية فتأتي أحكامه من جائرة ومنافية للحياد العلمي الصحيح " [24] و بناء على هذا فهم يطمحون إلى تفكيك للتراث العربي والكشف عن خباياه من خلال العقلية الغربية التي تعتمد اعتمادا كليا على البحث العلمي الرصين "لأمر الذي يجعلنا نحن المسلمين نقف من هذه الدراسات موقف الحذر و يختم علينا الكشف مما فيها من زيف و خداع " [25] و رغم على هذه المجهودات التي قام بها المستشرقون إلا أنهم يجب علينا الرد على المستشرقين للمتعصبين والذين يذهبون أن العرب لم يكن لهم التصنيف الكامل المبني على المنطق و عجزوا عن الاستنتاج و الاستنباط لتراتهم عكس الإنسان الغربي ، و لهذا في نظرهم فإن عقلية الإنسان العربي بوجه عام يشكل حالة مربكة للباحثين العرب في كل مجالات العلوم،وهذا ما يؤكد في نظرهم عدم تطور المجتمعات العربية،لأن بحثهم لتراتهم أصبح فارغا من المحتوى المادي الإنتاجي "توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين،سخروا معلوماتهم عن الإسلام و تاريخه في سبيل مكافحة الإسلام و المسلمين ،وهذا واقع مؤلم لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون برسالتهم بكل صراحة"[26].

و هذا يؤدي بطبيعة الحال إلى الإحساس بالتفوق والإصرار عليه و في هذا تكمن الخطورة البالغة ، واحتقار الآخر ولكن رغم كل هذا نستطيع أن نؤكد أن المستشرقين قادوا الخدمات تستحق للتنويه و هذا من خلال بحوثهم التي اتسمت الموضوعية في طرح الأفكار و معالجتها .